



الابن السيد حسين والفقر المبري

أديب
ذو اقة ! في صمته تستجلى ثورته، وفي عينيه آثار تفكير
جبار، وعلى وجهه بقايا من شرود عميق كالبر فلا
يتيسر لك أن تسبر غوره
قلبه جياش بالعاطفة، ورأسه طافح بالآمانى . . ومع سعيه ودأبه
تقف دون تحقيق رغائبه العراقيل
خيالى النزعة . . فهو يستغرق فى تأملاته . قل أن يخالط الناس أو
يجاريهم فى حديث ما . يميل إلى الوحدة أشبه بالناسك . . كتبه هى
سلواه وعزاؤه

تفتحت باصرتاه على الحياة فى العشرين من شهر فبراير عام ١٩١٥ فى
أحضان أسرة كريمة . وما انفك أن طرق أبواب مدارس الفرير الفرنسية
ولم يزل فى منتصف العام السادس من عمره . وهى مدارس قاسية النظام .
تبدأ الدراسة فيها من الساعة صباحاً وتنتهى فى الخامسة مساءً

وفي هذه المدارس خضع مبكراً لقيود شاقة مما أعانته في مستهل حياته العسكرية فيما بعد حتى أنه أصبح باحثا وريش الكلية الحربية وفاز بسيف الشرف في عام ١٩٣٨ عند تخرجه أول دفسته

وكان طلبة تلك المدارس يعاقبون أشد العقاب لو سمع أحدهم يتكلم بغير الفرنسية ، مما جعله يتقن الفرنسية كأحد أبنائها

ولم يكن قسوة النظام وخضوعه في تلك السن المبكرة لقيود شاقة - كما أورينا - جعلته شديد التزم بتلك الحياة . فما أتم دراسته الثانوية والتحق بكلية الهندسة الملكية ، فانتقل بذا فجأة إلى جو طليق ، حتى صار لا يمكنه إخضاع نفسه للإستذكار الطويل الممل . فصمم على السفر إلى الخارج لاستكمال دراسته

وتملكته نشوة الترحال فلم يكد يمضي عليه ثلاثة أشهر في جامعة « ريدنج Reading » بالإنجلترا حتى بارحها إلى لندن ثم باريس ثم إلى نيويورك بأمركا

وأشفق والداه عليه من ضياع مستقبله خصوصا وقد كان لعائلته مركز ممتاز ، فقرررا على مضض أن يتوقفا عن إرسال النقود إليه حتى يضطر إلى العودة

فلما ضاقت به ذات يده في أميركا ، عز عليه أن يتراجع فاحترف الملاكمة إذ كان قد سبق له تعلمها في مصر وفوزه بالبطولة الثانية في مسابقات الكليات للمهواة

ورفضى شهرين في أميركا منتقلا على حلقات الملاكمة ولم يخسر مباراة واحدة وكان فوزه فيها جميعها بالضربة القاضية

ثم حدث ما لم يكن في الحسبان إذ طنطننت له الجرائد ورأى أن يتمكن نفسه في مباراة ذات عشر جولات ضد بطل واشنطن جطون ، عاصمة الولايات المتحدة الأمريكية ، في الوزن الخفيف ، هاري طومسون ،

وكانت مباراة شديدة قاسية مع أنها لم تتعد الجولتين . وفي الجولة الأولى ظهر عليه البطل الأميركي بشكل واضح ، ولكن ذو الفقار ، كان له قوة احتمال كبيرة ومقدرة على تسديد اللكمات القاضية

فلما بدأت الجولة الثانية انقضض المصري على غريمه الأميركي فصرعه بضربة شديدة . وقام الأميركي يترنح وكانت فرصة ذهبية . وخشى ذو الفقار أن تفوته إن تركها تمر دون استغلال . فانهال على طومسون بسيل من اللكمات ، وقع بعدها الأميركي وقد أصيب بكسر في الفك . وأعلن فوز « ذو الفقار » . بيد أنه كان قد أصيب هو أيضاً بشرخ في عظام يده اليمنى . ومن يومها لم يتمكن من الملاكمة ثانية . .

وهنا مرت به أيام وليال سود . . استشعر خلالها الحرمان والغربة . . فكان من العبث ألا يمسك القلم ليرسم هذه الصور العابسة من حياته

فكتب وكتب كثيراً كتابة تفيض شعوراً وعاطفة وأسى . . تخز في النفس حين تناولها أو تصفحها . فهي تشير الانقباض وتوقظ المواجه

إنصت إليه وهو يغنى وحده في الظلام على قارعة الطريق :

غريب . . مأواه جنح الليل . .

تحت جنبيه قصاصة من صحيفة . .

وفوق صدره بقية من أمل ..
وفى بطنه رائحة من طعام ..
أما رأسه فضطرب بالأحلام ..
ارحمود يا قوم حتى ينسام ..

ومن ثم انفرجت أسارير الأيام .. حين راح يعالج القصة القصيرة .
وإذا به يحرق أكثر من واحدة في أمهات الصحف الاميركية باسم مستعار
نظير أجر باهظ

وكان أن تعلقت به فتاة أميركية ، ولعلها أحبه بعبارة أوضح . فتبادل
ولم يابها بضعة رسائل ، عندما يتسنى نشرها ستحدث ضجة في الوسط الأدبي .
وحدث أن عاد الى مصر ، والتحق توأ بالكلية الحربية ، فكان دائماً
الأول في جميع الامتحانات وفاز بالجوائز الأولى في علوم حركات
المشي واللغة الانجليزية والرياضة وركوب الخيل وعلم الطبوغرافيا . وفي
بطولة الملاكمة فاز بالجائزة الأولى في الوزن المتوسط

ثم التحق بسلاح الطيران وصار قائداً ثانياً لطائرة صاحب الجلالة
الملك وكان له شرف السفر مع جلالتة بالطائرة سبع مرات ، أى قل أنه
أمسى نسياً عتازاً .

ولدى ارتفاعه بالطائرة في الجو لأول مرة .. وصف أحاسيسه وصور
المباني من تحته ، وصفاً بديعاً ليس في الوسع أن نذكره .

وطفئ محاول الشعل ، وبالرغم من مشابرة فقد بادت محاولته بالفشل ،
فلم ينظم سوى بيتين اثنين يعتز بهما للغاية . .

وهذا تخونه أعصابه . . وريشاء القدر أن يلتقي به في مخاضه ما ، فإذا
باسمه المغمور يملأ الصحف المصرية وإذا بصورته تتناقلها المجلات . . عنيفة
وأجنبية .

وكادت حياته تتبدد مع الريح . . لولا أن أعلنت براءته وأخلى سبيله .
وربما كان اعتقاله في ذلك الحادث من أظهر الأسباب التي ألقت به
في غمرة الأدب .

فقد كان يحب القراءة ، وكثيراً ما كتب سنة ١٩٣٢ و ٣٣ عن الملاكمة
على صفحات جريدة البلاغ مقالات متتالية تحت عنوان « كيف
تلاكم بنجاح » .

وأقبل في سجنه على قراءة الأدب . . وعاد إلى مؤلفات وأشعار الشعراء
الفرنسي الكبير ألفريد دي فيني « Alfred de Vigny » . فقد كان وما
يزال كاتبه المختار ، وقرأ مرة أخرى مسرحيات جان راسين « Jean Racine »
و « بيير كورني » « Pierre Corneille » التي كان قد تعلمها في صفوة عن
ظهر قلب

وقرأ أشعاراً كثيرة لأمرىء القيس وأبي العلاء المعري . . .

فلما نفس عن رأيته بمبارحة الاعتقال تملكته نشوة الأدب واستهل
عهده بالسكتابة في مجلة الرسالة موقعاً بحرفين من اسمه « ذ . ف » ، وبدأ ضم
نفسه إلى قائمة خيرة الأدباء في الشرق العربي !!

ويجزم مسنته كجندى ديج أكثر من مقال في مجلة الجيش ، الشيء الذى جعله يحظى بالإعجاب والثناء

ولكن كتاباته كانت متأثرة في طابعها وأسلوبها بموسيقى الشعر الفرنسى وبخيال دى فينى فى حين كانت مقالاته الأولى عن الملاكمة فى البلاغ جامدة الأسلوب

ويتسنى القول بأن كتاباته الأولى كانت تماثل نظام مدرسته الفرنسية القاسى أما كتاباته الآن فقد اكتسبت روح الأدب الفرنسى الخيالية الذى ظل منظورياً فى نفسه سنين عديدة قبل أن تبعثه قراءته الثانية لذلك الأدب فى شهور الاعتقال

وكما أورينا آنفاً أنه قليل الاختلاط . يقضى وقته مع كتبه المتباينة ، إذ انضم مكتبته حوالى ٧٠ كتاب فى جميع المناحي : علوم عسكرية ، علم النفس ، تاريخ ، أدب عربى ، أدب انجليزى ، أدب فرنسى ، فلسفة ، دواوين شعرية ، تراجم ، قصص أدبية . إذ أنه يرى أن الكتابه تستدعى أن يلم الكاتب بنواحي الحياة جميعها . فإذا كتب عن قائد مشهور رجع إلى كتب فى علم النفس تعيينه على تحليل شخصيته . وإذا وصف موقعة ، درس تاريخ الدولتين المتحاربتين حتى يلم بنفسية الأفراد المشتبكين فى المعركة وتاريخ جميع المعارك التى ربما تكون قد وقعت على مقربة من الميدان الحال لأن هذه المعارك القديمة كثيراً ما ترسم فى عقاية القواد الحاليين اتجاهات مخصوصة

وهو يعد حجة فى علم النفس التحليلي ، إذ يكاد يكون قد قرأ جميع ما كتبه فرويد (Freud) فى هذا الباب

ومن هذا يتبدى أنه قليل الانتاج لأنه كثيراً ما يضطر الى قراءة عدد
كتب قبل وضع مقال واحد . واذا كتب المقال ، أعاد صياغته مراراً
وأخرى قبل أن يقنع بإرساله للنشر ، وكثيراً ما يؤلف المقال ثم لا ينشره
إذا وجد أنه لم يرتفع الى المستوى الذى رسمه له فى فكره من قبل

وكثيراً ما يسطر ملخصات لبعض الكتب التى يقرأها باللغة الانجليزية
للرجوع اليها فيما بعد اذ أنه يعتقد إنه أقدر على التعبير عن آرائه بتلك
اللغة عن اللغة العربية وربما رجع ذلك لكثرة ما قرأه فى تلك اللغة .
وأسلوبه باللغة الفرنسية لا يكاد يقل عن مستوى أسلوبه فى اللغة الانجليزية
الا أنه لا يستخدمها الا قليلاً فى كتابة بعض الخطابات لأصدقائه القدامى
فى الدراسة الثانوية

وأمل هذا الأديب أن ييسر له يوماً ما كتابة تاريخ خالد بن الوليد
باللغة الانجليزية حتى يظهر للغرب عبقرية هذا القائد الاسلامى الذى يتعين
أن يرفع فى نظر الجميع الى مراتب عظماء القواد والذى أهمل دراسته
الكتاب الغربيون

ويرى أن أعظم الكتب التى قرأها والتى يستعيد قراءتها من وقت
لآخر ، هى :

الديوان الشعرى لألفريددي فينى (بالفرنسية)

والعبودية والمجد فى الحياة العسكرية — لألفريددي فينى

ومسقط الزند - لأبي العلاء المعرى

رصاص مع الشيطان (بالفرنسية)

وعلى هامش السيرة — للدكتور طه حسين

وأهل الكهف — الأستاذ توفيق حكيم

والثورة العربية في (١٩١٤—١٨) بقلم لورنس المشهور (بالإنجليزية)

ويرى حسين أن الغرض الأول من الكتابة هو حمل القراء على القراءة وليس مجرد عرض لعدد من الأفكار والحوادث

وقد أقنعه مؤلفات فرويد أن الإنسان إنما هو خاضع للعواطف في جميع أحوال حياته حتى ولو بدا أن عقله المفسر هو الذي يسيطر عليه فعلاً

ولذا فإنه يرى من الواجب على الكاتب أن يتوجه إلى عقول القراء عن طريق قلوبهم . بأن يبدأ في استشارة اهتمامهم قبل عرض الحوادث . وإلى من القارئ ، متابعة القراءة ، خصوصاً إذا كانت غاصة بالمعاني

ثم أنه إذا وصف المعارك أو سواها حاول ألا يذكر الحوادث أو التحليلات والتعليقات في ترتيب جامد بل يحاول أن يدمجها في قالب قصصي ، إذ يصبح عرضاً على القارئ أقرب إلى الواقع

فإن الذي يشاهد حادثاً ما ، لا يرى الحوادث وهي ترى قبالاته وحسب بل إنه يتأثر بالملايسات من هرج أو خوف أو حماس يتغلب على من وقف يشاهد المنظر ، فهو لذلك يحاول جهده أن يخلق هذا الشعور لدى القارئ حتى يندمج في الصورة المرسومة وبهذا يثير اهتمام القارئ من ناحية أخرى . فلا يمل القراءة

وكلمتنا الأخيرة أنه دقيق في اختيار ألفاظه . وطلاء أساوره بالمحسّنات
اللفظية ، ووزن عباراته على نغم خاص .. فهذه حقيقة بيّنة قد بنى فيها
سواء من أدباء الجيش

وعلى حد تعبير الأستاذ « العقاد » أنه أديب ذواق ، ولو أنه يميل
أحياناً إلى استعمال الكلمات المهجورة

وضع أكثر من مؤلف .. أحدها يسمى « عاصفة على الشرق » وهو
يصف الحرب الأخيرة وهي تلتهم الشرق . بل قل إنه لوحة جسست فيها
الحوادث والمشاكل فتجسّس بأنك لا تقرأ كتاباً وإنما تشهد معارك وتعيش
بين شخصياتها وأحداثها الجسام

كما ألف بالإنجليزية بضعة كتب نذكر منها كتاب « محمد ، الرسول وهو
بحث اجتماعي صرف تعرض فيه لنقط غامضة ذات أثر كبير في مجرى حياة
المسلم الأول » . وترجم « ألف ليلة وليلة » إلى الإنجليزية بأسلوب مستحدث
وبطريقة شائقة لتطابق صور العصر الحديث .. ولكن لا ندرى متى يأخذ
مذابح المؤلفان سيديهما إلى النور !

وعما يؤخذ على ذى الفقار أنه مقل في إنتاجه ومرجعه تكاسله الناتج عن
عدم رضائه عن نفسه ، واستهانة أولى الأمر بقيمته !!
فلكم يود أن تعاد إليه أجنحته ليحلق بها في السماء .. فأمثال هؤلاء
يتعين أن يبتعدوا عن الأرض لكي يحلقوا في جواء الخيال لتجود
قرايحهم بالطيب من الثمار ...